15me Année No. 720

Lundi — 21 — 4 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٢٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ جمادي الأولى سنة ١٣٦٦ — ٢١ أبريل سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

نحن العـــرب ...

للأستاذ محمود محمد شاكر

إنى لأسأل نفسى ، كما يسأل كل عربى نفسه : « إلى أين يسار بنا تحت لواء هذه الحضارة البربرية الحديثة ؟ » وجواب هذا السؤال يقتضى العربى منا أن يلمح لمحاً فى طوايا النفوس وخبايا السياسات ، ويقدمَ الحذر بين يديه ، ليكون على بينة من رأيه ومن مصيره أيضاً . ولعل القارىء قد فوجىء لإقحام هذا الوصف للحضارة الحديثة بأنها حضارة بربرية ، ولكن لا يعجل بالعجب مما لا عجب فيه فإنه حق بيّن لا تخطئه العين البصيرة .

نعم ! إنها حضارة لم يوجد لها مثيل بعدُ فى التاريخ كله منذ كان آدم إلى يومنا هذا . حضارة قد نفذت إلى أسرار المادة فكشفت عنها كشفاً يسر للبشرية أن تقبضَ على زمام الحياة وتصرّفها فى حيث شاءت وإلى حيث تريد ، وجعلت الإنسان يشعر شعوراً لا خفاء فيه بأنه قادر على أن ينشىء التاريخ إنشاء ، ويبنى الوجود بناء جديداً ، ويملأ ظلام الليل وضياء النهار حياة وقوة وجلالا ، وينفث فى الأشباح روحاً ويكسوها لحماً ويعطيها من مقدرته ما يجعلها كائناً متصرفاً بشيء أشبه بالعقل والإرادة . ونعم ! إنها حضارة قد قامت أركانها على علم جم يعجز التأمل عن إدراكه وبلوغ آفاقه ، علم تدسس إلى ضمير الأرض والسموات فاسترق السمع إلى نجواه وإلى خواطره فقبس منها قبساً مضيئاً أنار ظلمات هذا الوجود الذى لا يعلم ما انطوى عليه إلا الله الذى يعلم الخبءَ فى السموات والأرض . ونعم ! إنها حضارة أزرت بالحضارات كلها وجعلتنا نشعر بالقوة التى طواها الله فى هذا « العالم الأصغر » حتى مكن له أن يكون سيد « العالم الأكبر » غير منازع .

نعم إنها حضارة مجيدة عاتية أحيت الإنسانية ورفعت شأنها ، ولكنها على ذلك كله حضارة بربرية طاغية قد امتلأت فساداً وجوراً وحماقة وفجوراً ، حضارة بربرية رفعت الإنسانية من ناحية العقل ، ولكنها قتلت ضميرها ومزقت شرفها ، وجعلتها تشعر بقوة غير شريفة ولا صالحة ولا أمينة فى أداء حق الإنسانية عليها .

والعربى منا إذا نظر اليوم فينبغى أن ينظر أولا إلى هذه « البربرية » من الناحية التى لها مساس به وبحياته وبتاريخه على هذه الأرض ، ليعلم إلى أين تريد هذه الحضارة أن تسوقه ؟ وأى بلاء تريد أن تبتليه به ؟

إن تلك الدول التى صارت دولا فى تاريخ هذه الحضارة البربرية وبمونتها تريدنا على أشياء وتريد بنا أشياء لا بد لكل عربى أن يراها بعين لا تغفل . هذه الدول التى ادعت ولا تزال تدعى أنها خاضت غمار الحرب البيدة الثانية دفاعاً عن حرية البشر فى الحياة ، وعن رفع مستوى المعيشة فى هذه الأرض ، ترتكب كل يوم من ضروب الخيانات والغدر والنذالة ما لم يشهد التاريخ مثله ، كما لم يشهد مثل حضارتها هذه البربرية . .

هذه أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا جميعاً ولا نستثنى تزعم كل يوم أنها تغضب للحق ، حق الناس فى الحرية ، وتثور استنكاراً للمظالم التى تفرض على الشعوب العاجزة عن دفع الظلم ، وأنها تحوط الإنسانية من أن يدنسها باغ أو طاغ بجبروته وبطشه ، وهى جميعاً لا تزال تملأ جنبات الأرض عجيجاً وضجيجاً إذا رأت ضيما أصاب شعباً من الشعوب ، وتتنبل كل منها بالدفاع عنه وبالذياد عن حقه المهتضم ، وترى أمريكا خاصة ومن دونها جميعاً تذيع بين الناس وتشيع أنها حامية الحضارة ، وأنها حامية الناس من البغى ، وأنها لم تخض غمار الحرب إلا لهذا وحده : أن تحمى الحضارة من الدمار ، وأن تحمى الناس على اختلافهم من البغى . وكذلك تفعل بريطانيا أيضاً ، وهكذا تزعم روسيا ، وهكذا تتبجح فرنسا .

ولكن — هذه فلسطين فلذة أكباد العرب قد شهدت أنذال الأمم يطأون ديارها منذ سكتت الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذوا يسيلون عليها سيلا منذ ذلك اليوم يريدون أن يجلوا العرب عن بلادها ليحتلوها وينشئوا فى ربوعها دولية يهودية ، فإذا بنا نرى أمريكا تعينها بالمال واللسان والقلب ، وترى بريطانيا تغريهم بما يريدون وتصبر على إذلالهم لها صبراً لم يعرفه قط تاريخ بريطانيا التى كانت تسمى رجال العرب المجاهدين « رجال العصابات » ، وترى روسيا وفرنسا تلوذان بالصمت المطبق لا تقول ولا تنبس ولا تتحركان دفاعاً عن الحضارة ، ولا دفاعاً عن الحضيمة التى تراد بالإنسانية ، كما تحركت من قبل .

وهذه تونس والجزائر ومراكش تجرى فيها المذابح الوحشية التى لم يعرف التاريخ مثلها . فتسيل دماء أربعين ألف عربى مابين عشية وضحاها ، بين سمع سفراء الدول وبصرها ، فلا ترى أمريكا ولا بريطانيا ولا روسيا تثور أو تغضب أو تقول ، وتمضى فرنسا الباغية تنفذ سياستها فى تدمير شعوب برمتها . تدمر حضارتها وماضيها وقواها وتستل الأرواح من أبدانها بالسلاح غدراً وغيلة ، وتمتهن الرجال وتسب الأديان وتفتك بالأحرار ، ويرى ذلك ويسمعه سفراء أمريكا وبريطانيا وروسيا المدافعات عن الحرية وعن الحضارة وعن الإنسانية .

نعم ، وهذه فرنسا أيضاً تقيم الولائم للسباع والوحوش فى جزيرة مدغشقر ، فتفتك بأهل الجزيرة فتكا لارحمة فيه ولاهوادة والعالم كله يسمع ، والإشاعات تتناقل خبر المجازر وتسميها « إخماد ثورة » وتقف بريطانيا صامتة عليها الوقار ، وتدير أمريكا ظهرها قد شغلتها هيئة الأمم المتحدة التى تنظمها للدفاع عن حريات البشر ورد البغى عنهم ! وتنكب روسيا على إصلاح معايش خلق الله ورفع الضيم عنهم بالمساواة بينهم فى حقوق الحياة !

وهذه بريطانيا ترتكب شر الأفاعيل فى السودان وفى إفريقية ، وتقول لأمريكا وفرنسا وروسيا إنى أريد أن أكفل لهؤلاء الناس استقلالهم ، أريد أن أرد عنهم اعتداء بنى جلدتهم الطامعين فى استعمارهم ، وأريد أن أترفق بهم حتى أرفعهم من حضيض الجهالات لكى يصبحوا شيئاً فى تاريخ هذه الإنسانية ، فهى تقتل منهم كما تقتل السائمة ، وتدعهم عراة بل تجبرهم على أن يظلوا عراة ليخرجوا لها من ثمرات الأرض ما يرفع مستوى معيشتهم . وتعرف ذلك أمريكا وفرنسا وروسيا فيقولون لها أن نعم ، ولك الشكر ، ونعم ما تفعلين !

وهذه أمريكا تنطلق من معزلها مرة واحدة لتقول للعالم إنى أحمى الضعفاء وأجبر كسر المحتاجين ، وأعين على نوائب الحق ، وأدفع الظلم عن الناس ، وأرفع الضيم عن المضيم ، وترى كل هذا وراءه سفراؤها ورجال جامعاتها فى الشرق ، فلا تكون نصرتها لنا إلا بأن نذهب إلى جزيرة العرب وإلى إيران وإلى بلاد كثيرة من بلادنا لتأخذ البترول ، وتقول لنا سأعطيكم من المال مبلغاً ضخماً ترفعون به مستوى معيشتكم ، فلا تحملوا المصالح الأجنبية فى بلادكم على محمل سيىء أيها الرجال العقلاء . أما مسألة مصر والسودان ، وأما مسألة مراكش وتونس والجزائر وهذه المذابح والمجازر ، وأما مسألة فلسطين وما فيها من الجور والبغى والعدوان والنذالة ، وأما مسألة العراق وسائر البلاد العربية ، فذلك كله أمور تتم على وجه آخر إذا جاء حينها ، وأنا لا أستطيع أن أتدخل فى شئون الدول ، بل الأمر كله متروك لهيئة الأمم المتحدة إن شاء الله ، فاطمئنوا .

هكذا يرى العربى فعل هذه الدول القائمة على الحضارة

والدافعة عن تاريخ الإنسانيـة وعن شرفها وعن حريتها : فإذا رأتنا نقول لها الحق غضبت وزعمت أننا قوم نتعصب على الأجانب بجهلنا وغباوتنا وحماقاتنا الموروثة ، وصـدقوا ، فنحن جهلاء أغبياء ، لأننا صدقنا يوما أن روسيا هبت لتدفع الظلم عن الطبقات المهضومة الحقوق ، وأن بريطانيا ثارت لتدفع الشر عن الإنسانية المهددة بالجبروت والطغيان ، وصدقنا فرنسا أنها هي الداعية إلى العدل والمساواة والإخاء ، وصدقنا أمريكا أنها البريئة المدافعة عن حقوق البشر وتساويهم في هـذه الحياة لا فرق بين صغير الأمم وكبيرها ، أو ضعيفها وقويها ، إننا جهلاء وأغبياء ، لأننا أبحنا بلادنا للأجانب ليرفعوا لنا مستوى العلم والثقافة ، ومستوى العيش والحياة ، فأكرمناهم وآويناهم وخدعنا بهم ، وحرصنا على أن نجعلهم لا يشعرون بأننا نريد أن نكون حرباً عليهم ، فأنشأوا ما أنشأوا من مدارس ومتاجر وأوغلوا في بيوتنا وأراضينا فسرقوا منا قلوب أبنائنا وأموال أغنيائنا وفقرائنا ، واستبدوا بالأمر دوننا ، وتركونا لا نستطيع أن ننفذ في بلادنا ما تنفذه كل دولة من القوانين والأحكام فإذا أردنا نحن أن نفعل شيئا قليلا مما تفعله الدول لحماية أرضها وأموالها ، ثاروا علينا من الشرق والغرب ومن يمين وشمال يرموننا بالتعصب ، ويمنون علينا أنهم هم الذين رفعوا مستوى معيشتنا ، وهم الذين علمونا كيف نلبس وكيف نأكل وكيف نشرب .

فهل يحل منذ اليوم لعربي أن يصدق أكاذيب هـذه الأمم الباغية في دعواها ومزاعمها ؟ هـل يحل لعربي أن يثق بأن أهل هذه الحضارة التي اشتملت على روائع الفن والعلم والفلسفة ، قد صاروا حقاً أهل حضارة تستحق أن تسمى حضارة لأنها قربت المسافات بالطائرة التي تخطف في جو السماء خطفاً ، ومست موات الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وألقت السحر في بنان الإنسان فإذا هو طبيب يدفع عوادي الموت عن رجل في النزع ليس بينه وبين الموت حجاب ؟ هـل يحل لعربي أن يصدق شيئاً من هـذا كله وهم يكذبون على خلق الله العرب ويغررون بهم ويخدعونهم ويقتلونهم ويذبحونهم بلا رحمة ولا شفقة ولا ضمير يفزع من كل هـذه الجرائم البشعة في تاريخ الإنسانية !

تمس العلم وتمس الفن وتمست الفلسفة ، وتمست هـذه الحضارة البربرية ، إذا كان هـذا خلقها وهذا ضميرها ! وما نفع العلم والفن والفلسفة إذا هي خلطت لنا نحن العرب بالكذب والوحشية حتى في الأعمال التي يصفونها بأنها علمية خالصة [1] . إننا على ضعفنا وجهلنا وفقرنا أكرم نفوساً ، وأعلى أخلاقاً ، وأنبل قلوباً من أهل هذه الحضارة البربرية التي لا يثور أهلها إلا لحاجة في نفوسهم ، والذين لا يفزعون مما ترتكب أيديهم من الوحشية في بلادهم وفي بلاد غيرهم من البشر .

ليعلم أهل هذه الحضارة في أوربة وأمريكا ، وينبغي أن نعلمهم نحن في بلادهم وبين ظهرانينا أننا ان نهاب بعـد اليوم أن نكاشفهم بعداوة عربية ، لا كعداوتهم هم تلك العداوة الممزوجة بالرقة والخداع والكذب والتغرير ، إنها عداوة طالب الحق الذي ينتصف لعـدوه من نفسه ، وينتصف لنفسه من عدوه ، والذي لا يغمط حقاً ولا ينكر معروفاً ، ولكنه لا ينسى أن عـدوه هو عدوه !

ولقد سمع أحد رجالنا ، هو ابن شبرمة ، يوماً عروة بن المغيرة وهو ينشد هذه الأبيات :

لا أتقي حسك الضغائن بالرقى ... فعل الذليل ، ولو بقيت وحيدا
لكن أعد لها ضغائن مثلها ... حتى أداوي بالحقود حقودا
كالخمر خير دوائها منها بها ... تشفي السقيم وتبرىء المنجودا

فقال : لله در عروة ! هذه أنفس العرب .

فهـذه نفوسنا ، لن تهادن من يعادينا عداوة طويت على الضغائن الصغيرة المحتقرة ، فإذا أنابو وانتصفوا لنا من أنفسهم ، وعرفوا قبح ما أتوا وشناعة ما ارتكبوا ، فيومئـذ نصالحهم مصالحة العربي الذي لا يضمر الغـدر ولا الغيلة ولا الفتك ، ولا يعرف الكذب ولا المخاتلة .

محمود محمد شاكر

(١) يحسن بالقارىء أن يقرأ مقالة في مجلة الكاتب المصري شهر إبريل سنة ١٩٤٧ عنوان « بين السياسة والعلم » للدكتور سليمان حزين ، فهي تكشف عن استخدام العلم أحياناً في أحط الأساليب السياسية .